بحث عام | قسم الدراسات الدينية | 29 يونيو 2017

دور السّحر في تاريخ العلم وعلاقته بالإسلام

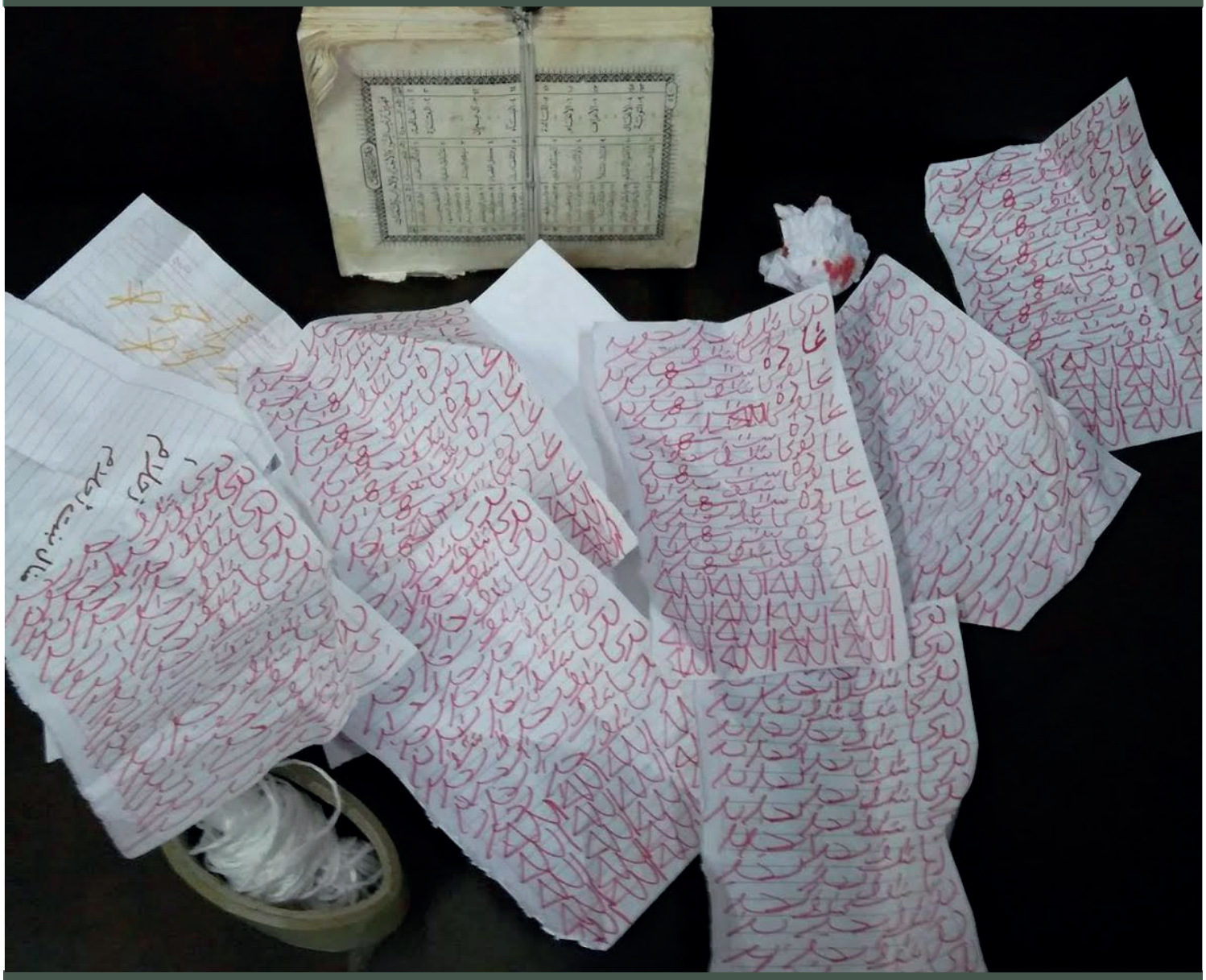

محمّد علي عطبوش
باحث يمني

مؤمنون بلا حدود
Mominoun Without Borders
للدراسات والأبحاث www.mominoun.com

جميع الحقوق محفوظة © 2017
All rights reserved © 2017

الملخّص:

غالبًا ما تسمّى معتقدات الشّعوب البدائيّة عن الطّبيعة بـ (الخرافيّة أو الأسطوريّة)، وتوصف ممارساتهم السّحريّة بـ (الدّجل والشّعوذة)، خاصّة مع ارتباطها الواضح بالمعتقدات الدّينيّة، ولمّا كانت الأديان التّوحيديّة رافضة لهذه المعتقدات ومحاربة تلك الممارسات، حُسِب لها فضل كبير بتخليص البشريّة من التّفكير الخرافيّ، ودفعه خطوات إلى الأمام نحو التّفكير العقليّ والعلميّ، فهل هذا صحيح؟ وهل لعبت الأديان هذا الدّور فعلًا؟ أم إنّ العكس هو ما حدث؟ نناقش في هذا البحث الدّور المهمّ الّذي لعبه السّحر في تاريخ العلم، والعلاقة السّيئة الّتي كانت بينه وبين الدّين، خاصّة، الدّين الإسلاميّ الّتي انعكست سلبًا على مسيرة العلم.

البدايات:

يميل العقل - أيًّا كان مستوى تطوّره - وحتّى في الحيوانات، إلى تكوين أنماط للأحداث حوله وعلاقته بها، عبر استقراء تجاربه وتكرارها، وربط الحدث بالّذي يليه برابطة سببيّة (ربّما تَصدُق وربّما لا)، لكنّها تتكرّر، وهذا كافٍ لتعميمها والانتقال بها إلى مستوى القوانين الّتي تعينه على توقّع الأحداث وكيفيّتها، بالتّالي، الاستفادة منها لتحقيق منافع أو لتجنّب مضارّ[1].

هكذا بدأ الإنسان البدائيّ بميله إلى تنميط الأحداث حتّى وقوعه في خطأ ربط نتائج بغير أسبابها المباشرة، أو بغير أيّة أسباب حقيقيّة، لمجرّد ظهورها متلازمة في الطّبيعة، «فالسّحر يخلط بين تداعي الأفكار وترابط الأسباب، ويحاول التّأثير في الظّواهر بواسطة تداعي الأفكار بآليّة المشابهة»[2]، «ولا يمكن عيب هذا النّظام في التّسلسل المنطقيّ أو لا علاقيّة النتائج، وإذا وصمنا هذه المقدّمات بالتّفاهة لأنّنا نكتشف زيفها بسهولة، كان موقفنا جاحدًا وغير فلسفيّ، فنحن نقف على أساس وضعته الأجيال الغابرة، وقليلًا ما نلحظ جهودهم المضنية الطّويلة الّتي كلّفتهم الكثير الكثير حتّى أوصلونا إلى ما نحن عليه الآن»[3].

«تُعدّ مبادئ الرّبط ممتازة بحدّ ذاتها، وهي جوهريّة في عمل العقل البشريّ، وإذا استخُدِمت بالشّكل المنطقيّ ستؤدّي إلى العلم، وإذا استخدُمِت بشكل غير منطقيّ؛ فإنّها تؤدّي إلى السّحر»[4]، ومن هذه الثّغرة ظهرت الأديان البدائيّة والمعتقدات الخرافيّة والممارسات السّحريّة، الّتي تمتلئ بها كهوف الهند، ومعابد أرض الرّافدين، وأهرامات مصر وغيرها، كجزء مقدّس من الأديان البدائيّة، فقد «بدأت العقيدة في السّحر في أوائل مراحل التّاريخ الإنسانيّ، ولم تَزل عن الإنسان زوالًا تامًّا قطّ»[5]، «ولا يوجد شعب دون سحر أو دين، مهما بلغت بدائيّته»، كما يقول برونيسلف مالينوفسكي (Bronisław Malinowski)[6].

اختلاط السّحر بالعلم البدائيّ:

مع استمرار تقنين العقل البشريّ لظواهر الطّبيعة، بصورة لا تحتويها الأديان، بدأ السّحر بالانفصال عن الدّين، «وعندما ينفصل السّحر عن الدّين، يتوقّف الدّين عن مخاطبة قوى طبيعيّة، ويبقى من الدّين مخاطبة قوى إلهيّة فقط، خارج العلاقات السّببيّة»[7]، فتبدأ العلوم في التّمايز نحو السّحر، ويُنظَر إلى الممارسات

1 جيمس جورج فريزر، الغصن الذّهبيّ، دراسة في السّحر والدّين، دار الفرقد، دمشق، الطّبعة الأولى، 2014م، ص 48.

2 عزمي بشارة، الدّين والعلمانيّة في سياق تاريخيّ، 1/ 102

3 جيمس جورج فريزر، الغصن الذّهبيّ، ص 344

4 المرجع السّابق، ص 78

5 ويل ديورنت، قصّة الحضارة، ترجمة: زكي نجيب محمُود وآخرون، دار الجيل، بيروت، 1988م، 1/ 115

6 عزمي بشارة، الدّين والعلمانيّة في سياق تاريخيّ، 1/ 51

7 عزمي بشارة، الدّين والعلمانيّة في سياق تاريخيّ، 1/ 106

السّحريّة باعتبارها أنشطة علميّة لها مدارسها وتطبيقاتها وكتبها، «فالسّحر: هو شِبه علم بدائيّ يتشارك مع العلم في محاولة تسخير قوى طبيعيّة والسّيطرة عليها، فمن حيث المبدأ في ما يتعلّق باستخدام علاقةٍ بين أفعال الإنسان والتّأثير في الطّبيعة؛ لا فرق بين هدف السّحر وهدف العلم»[8]، لذلك؛ كانت الممارسات السّحريّة والمعتقدات الخرافيّة عند اليونان تُدرّس في كتب الفلسفة والطّبّ والهندسة والفلك والفلاحة، لا كعلم منفرد؛ بل جزءًا من كلّ هذه العلوم نفسها[9].

بعد تلك الفترة، ظهرت الأديان التّوحيديّة مسبّبةً تقليص العلوم السّحريّة بصورة صعّبت انتشارها، يقول ابن خلدون: «ولمّا انقرض أمر اليونان وصار الأمر للقياصرة، الّذين أخذوا بدين النّصرانيّة هجروا تلك العلوم، كما تقتضيه الملل والشّرائع»[10]، ثمّ ورثت العرب هذه العلوم فيما ورثوا من تركة اليونان في العصر العباسيّ، فنقّحوا ما تطوّر وعيهم إلى حد تمييز خرافيّته، وواصلوا الاعتقاد بعلميّة ما لم يقفوا على زيفه، كأيّ معتقد علميّ آخر.

الإسلام والسّحر:

كان الإسلام - منذ البداية - حريصًا على لفظ كلّ ما له علاقة بالسّحر، وهذا يفسّر كراهة الإسلام للشّعر الّتي تحوّلت إلى تحريم كامل عند بعض الفقهاء لاحقًا، وذلك لارتباط الشّعر بالجنّ في الثّقافة العربيّة، فكانوا يتداولون قصصًا حول وادي عبقر الّذي يسكنه شعراء الجنّ، ومن أمسى فيه ليلة جاءته الجنّ تلقّنه الشّعر، وإنّ كلّ شاعر من شعراء الجاهلية كان له قرين من هذا الوادي يلقّنه الشّعر، فارتبط العلم والإبداع بالجنّ حتّى وصف المبدع «عبقريًا» نسبة إلى وادي عبقر، يقول القرآن: (وَالشُّعَرَاءُ يَتَّبِعُهُمُ الْغَاوُونَ أَلَمْ تَرَ أَنَّهُمْ فِي كُلِّ وَادٍ يَهِيمُونَ)، وجاء في البخاري: «إنّ من البيان لسحر»[11]، وفي صحيح مسلم: «بينما نحن نسير مع رسولِ اللهِ إذ عرض شاعرٌ ينشدُ، فقال: خذوا الشّيطانَ، أو أمسِكوا الشيطانَ، لأن يمتلئَ جوفُ رجلٍ قيحًا، خير له من أن يمتلئ شعرًا»[12]، وفي صحيح ابن حبان: «أسجعٌ كسجعِ الجاهليَّةِ وَكِهانتِها»[13]، ويرى العلماء المشتغلون بموضوع الشّعر من الغربيّين: أنّ بين الشّعر والسّحر صلة كبيرة؛ بل رأى بعض منهم أنّ الغرض الّذي قصد إليه من الشّعر - في الأصل - هو السّحر[14].

---

8 عزمي بشارة، الدّين والعلمانيّة في سياق تاريخيّ، 102/1، 114

9 مقدّمة ابن خلدون، ص ص 629- 630- 655

10 المقدّمة، ص 632

11 صحيح البخاري، [5767]

12 صحيح مسلم، [2259]

13 صحيح ابن حبان، [6016]

14 المفصّل في تاريخ العرب قبل الإسلام، 16/ 14- 17/ 414

ويوضح ابن خلدون دخول هذه العلوم دار الإسلام، فيقول: «جاء الله بالإسلام، وكان لأهله الظّهور الّذي لا كفاء له، وابتزّوا الرّوم، وفتحوا بلاد فارس، وأصابوا من كتبهم وصحائف علومهم ممّا لا يأخذه الحصر، كتب سعد بن أبي وقّاص إلى عمر بن الخطّاب يستأذنه في شأنها وتنقيلها للمسلمين، فكتب إليه عمر أن اطرحوها في الماء، فإن يكن ما فيها هدى فقد هدانا الله بأهدى منه، وإن يكن ضلالًا فقد كفانا الله»[15].

ويتحسّر على هذه الخسارة بقوله: «فأين علوم الفرس الّتي أمر عمر بمحوها عند الفتح، وأين علوم الكلدانيّين والسّريانيّين وأهل بابل، وما ظهر عليهم من آثارها ونتائجها، وأين علوم القبط ومن قبلهم»[16]، فيبدو أنّ تخلّص عمر من هذه العلوم نال من علومٍ أخرى دون تمحيص واختبار، «لأنّ سيوف الشّرع قائمة على ظهورها مانعة من اختبارها»[17].

صدام الدّين بالعلم على اعتباره سحرًا:

يرى عزمي بشارة أنّ «الدّين يمكنه التّعايش مع العلم، إذا ما تخلّص من عناصر السّحر القائمة فيه؛ لأنّ الدّين يخاطب قوى خارج نطاق فعل العلم، خارج الدنيا، فقد يتعايش العلم مع الدّين، لكنّه يجد صعوبة أكبر في قبول السحر، من هنا، يتناقض العلم مع الدّين في مجال من ناحيتين: حين يلج الدّين الأسطورة مجال العلم الطّبيعيّ، وحين يحتفظ الدّين بعناصر من السّحر؛ أي من الإيمان بفاعليّة السّحر بصفته تقنيّات تؤثّر في الطّبيعة بالأرواح»[18].

يمكننا أن نضيف حالة ثالثة، هي: حينما يظنّ الدّين أنّ العلم يحتفظ بعناصر من السّحر، تؤثّر في الطّبيعة بالأرواح، وقد رأينا مثال هذا التّناقض مؤخرًا بتحريم مكبّر الصّوت لاشتباه تسخير الجنّ فيه، لدرجة أن يرجمها الشّيخ النّقشبنديّ بالحجارة داخل الحرم المكّيّ في ثلاثينيّات القرن الماضي[19].

الفلك:

وبالعودة إلى بدايات الإسلام؛ كان "الصّابئون قد نقلوا عن أساتذتهم الكلدانيّين علوم الفلك، وقد كان مذهب العرب هو عين مذهب الكلدانيّين القدماء"[20]، "جاء عن عمر أنّه استسقى بالمصلّى، ثمّ نادى العباس:

15 المقدّمة، ص ص 631- 632

16 المقدّمة، ص50.

17 المقدّمة، ص 631.

18 عزمي بشارة، الدّين والعلمانيّة في سياق تاريخيّ، 1/ 107 بتصرّف.

19 الغذامي، الفقيه الفضائيّ، المركز الثّقافيّ العرب، الدّار البيضاء، الطّبعة الثّانية، 2011م، ص13.

20 المفصّل في تاريخ العرب قبل الإسلام، 16/ 58- 61.

كم بقي من نوء الثّريا؟ فقال: إنّ العلماء بها يزعمون أنّها تعترض في الأفق سبعًا بعد وقوعها - فوالله - ما مضت تلك السّبع حتّى غيث النّاس"[21].

فالأنواء - إذن - كانت علمًا صادقًا، فيروى عن الكنديّ قوله: "إنّ علماء الهند كانوا أحذق النّاس بهذا العلم، وأصدقهم في الحكم"، وسُئل علي بن أبي طالب: "هل لعلم النّجوم أصل؟ قال: نعم، كان نبيّ من الأنبياء"، ويبالغ ابن قتيبة فيقول: "إنّ العرب القدامى كانوا أعلم الأمم بالكواكب"، وقد لاحظ الصّحابة ذلك متعجّبين واستفسروا من الرّسول ﷺ، جاء في صحيح مسلم: "يا رسولَ اللهِ! إنَّ الكهّان كانوا يحدّثوننا بالشّيء فنجده حقًّا، قال: تلك الكلمةُ الحقُّ، يخطَفُها الجنّيُّ فيقذفها في أذن وليِّه"، لكن كل ذلك لم يشفع لعلم النّجوم، "فليس عجيبًا أن يندسّ شيء من عبادة النّجوم بين تلك العلوم المنسربة"[22]، فيحرّمها الإسلام، وجاء في الصّحاح: "من اقتبس علمًا من النّجوم، اقتبس شعبة من السّحر"، و"من قال: مُطرنا بنوء كذا وكذا، فذلك كافر بي مؤمن بالكوكب"[23].

لكنّ علماء الفلك ناوروا لاحقًا ومارسوا علم الفلك عبر "علم جديد سمّوه (علم الهيئة)؛ لأنّهم لم يرغبوا في أن يرتبط اسمهم باسم أولئك الآخرين، الّذين كانوا يمارسون الشّقّ الآخر من علم الفلك، ألا وهو علم أحكام النّجوم، وعليه؛ فيمكن تعريف علم الفلك الجديد هذا بمعنى أنّه كان يجاري الدّين بالاتّجاه، بعيدًا عن التّنجيم أو القوى الّتي كانت متحالفة معها، فاضطر علم الفلك إلى إعادة صياغة أسسه، ليصبح علمًا يهدف إلى وصف ظاهريّ للظّواهر الطّبيعيّة وأساليب سلوكها، وأن يبتعد عن البحث في تأثير الكرات السّماويّة في الأرض"[24]، وهذا - مثلًا - يلغي العلاقة العلميّة بين المدّ والجزر والقمر - على سبيل المثال - فنجد القاضي عبد الجبّار في القرن الخامس، يقول: وهذا الكنديّ هو أحد الملحدة، له رسالة يدّعي فيها أنّ سبب المدّ والجزر إنّما هو زيادة القمر، وكم لهذا الكنديّ من الجهالات، كما لابن زكريّا الرّازي في الخواصّ والكيمياء"[25].

الطّبّ:

وليس حال الطّبّ بأحسن من حال الفلك، يقول المؤرخ جواد علي: «لعب التّطبيب بالسّحر والرّقيّ والتّعوّذ دورًا خطيرًا في حياة الجاهليين، كما يظهر ذلك من الأخبار الواردة في كتب الحديث والأدب،

21 تاج العروس، 1/ 474.

22 في طريق الميثولوجيا عند العرب، محمود سليم الحوت، دار النّهار، الطّبعة الأولى، 2000م، ص 82.

23 سنن أبي داود، باب النّظر في النّجوم.

24 جورج صليبا، العلوم الإسلاميّة وقيام النّهضة الأوربيّة، الدّار العربيّة للعلوم ناشرون، الطّبعة الأولى، 2001، ص ص 223- 302.

25 تثبيت دلائل النّبوّة، القاضي عبدالجبار، دار المصطفى، القاهرة، 2/ 631.

حتّى عُدَّ السّحر نوعًا من الطّبّ، وقد منع الإسلام أكثرها وحرّمها»[26]، وجاء في الصّحاح: «من اكتوى أو استرقى فقد برئ من التّوكّل»، فكأنّ لتحريم السّحر أثر في الطّبّ، وقد كان للجاحظ اعتراض على الطّبّ، اضطّر بالطّبيب الرّازيّ إلى تأليف كتاب كامل بعنوان «الرّدّ على الجاحظ في نقض الطّبّ»[27]، ومن بعده؛ نجد الإمام الباقلانيّ - في القرن الرّابع الهجريّ - يقول: «الواجب أن يكون العلم بأصل الطّبّ موقوفًا عليه ومأخوذًا من جهة الرّسل - عليهم السّلام - وعلى هذا أكثر الأمّة»[28]، ولا ندري علامَ استند في ادّعاء الإجماع هنا! ويذكُر «إخوان الصّفا» في كتابهم: أنّ هناك من يقول: «إنّ علم الطّبّ لا منفعة فيه، وإنّ علم الهندسة لا حقيقة له، وإنّ علم المنطق والطّبيعيّات كفر وزندقة، وإنّ أهلها ملحدون يدّعون عليهم المحالات، ويحكون عنهم الخرافات»[29]، وقد خصّصوا الرّسالة الأخيرة من كتابهم (الرّسالة الحادية عشر في ماهية السّحر والعزائم والعين) للتّشنيع على من يرفض هذه العلوم.

الدّين لا يحرّم السّحر؛ بل يحرّم «علم السّحر»:

المسكوت عنه - في هذا الصّدد - أنّ محاربة الأديان للسّحر لم تستند إلى نظرة علميّة ناقدة؛ بل إلى نظرة دينيّة تراها علومًا حقيقيّة فاعلة، لكنها محرّمة كونها تشارك الرّبّ فيما اختصّ به نفسه إلّا بإذنه.

فالقرآن - مثلًا - يذكّر ببابل هاروت وماروت، وسحرة فرعون بمصر وجنّ سليمان وغيرهم، بصورة روّجت أسواق السّحر السّوداء، وإن كانت حاربتها علنًا، وكانت نتيجة هذا التّحريم عرقلة بعض أنشطة العلم الحقيقيّ لاشتباهها بالسّحر؛ كتحريم ابن تيمية للكيمياء: "والكيمياء من السّحر"[30]، يقول الخطيب البغدادي: "ولو كان النّظر في أحكام النّجوم يفيد علما صحيحا، لم يجز لنا استعماله، لأنّ شريعتنا قد حظرته ونهت عنه، فلا يجوز لمسلم الدّخول فيه، وكيف يجوز استعمال ذلك وقد حظر علينا النّبيّ ﷺ ما دونه من تعليق الخرز، والحلق للمنفعة بها"[31]، فالبغدادي - هنا - يقيس تحريم علوم النّجوم على تحريم الخرز والحلق، رغم إتاحته لاحتماليّة المنفعة.

يتحدّث أبو حامد الغزالي عن علم السّحر، فيقول: "علم النّجوم غير مذموم لنفسه - لذاته؛ إذ هو قسمان: قسم حسابيّ نطق القرآن به، والثّاني: الأحكام، وحاصله يرجع إلى الاستدلال على الحوادث بالأسباب، وهو يضاهي استدلال الطّبيب، لكن قد ذمّه الشّرع، كذلك علم السّحر والطّلسمات، وهو حق؛ إذ شهد القرآن له،

26 المفصّل في تاريخ العرب قبل الإسلام، 16/ 43.

27 ابن النّديم، الفهرست، دار المعرفة، الطّبعة الثانية، بيروت، ص 362.

28 القاضي أبو بكر الباقلانيّ، تمهيد الأوائل وتلخيص الدلائل، مؤسّسة الكتب الثّقافيّة، لبنان، الطّبعة الأولى، ص 153.

29 كتاب إخوان الصّفا وخلّان الوفا، مطبعة نخبة الأخبار، 1306هـ، 4/ 95.

30 مختصر الفتاوى المصريّة، بدر الدّين البعلي، مطبعة السّنّة المحمّديّة، 2012م، ص 329.

31 القول في النّجوم للخطيب، دار أطلس للنشر والتوزيع، الرّياض، الطّبعة الأولى، 1999م، ص 172.

ولعلك تقول: كيف يكون الشّيء علمًا، ويكون مع كونه علمًا مذمومًا؟! فاعلم أنّ العلم لا يذمّ لعينه؛ إنّما يذمّ في حقّ العباد لأحد أسباب: كأن يكون مؤدّيًا إلى الإضرار بالخلق، والوسيلة إلى الشّرّ شرّ، فكان ذلك هو السّبب في كونه علمًا مذمومًا"[32]، ومثله الفقيه الحنفي ابن النّجيم، قسّم العلوم إلى قسمين (حلال وحرام)، وليس كما هو متوقع أن يقسّمها إلى (حقيقية وخرافيّة)؛ ففي ظنّه أنّها - كلّها - حقيقيّة، إنّما المسألة مسألة تحريم دينيّ؛ بل ضمّن الفلسفة والسّحر والعلوم الطّبيعيّة كلّها في خانة الحرام.

علم اليوم هو سحر الأمس:

تجاوزت البشريّة - اليوم - كثيرًا من النّظريّات الّتي كانت علميّة في حينها، مع حفظ القيمة التّاريخيّة لها؛ لأنّها "لم تكن - عمومًا - أقلّ علميّة، أو من صنع طبيعة المزاج البشريّ، أكثر من وجهات النّظر المتداولة اليوم، وإذا عدّت هذه المعتقدات - الّتي عفا عليها الزّمان - أساطير، فهذا معناه أنّ الأساطير يمكن إنتاجها بواسطة المناهج عينها، ويكون التّمسّك بها للأسباب نفسها الّتي توصل الآن إلى المعرفة العلميّة"[33]، يقول المؤرّخ ويل ديورنت في موسوعته الضّخمة عن "قصّة الحضارة": "إنّه لئن بدأ السّحر بالخرافة؛ فإنّه ينتهي بالعلوم"، ويستشهد ديورنت برأي عالم الأنثروبولوجيا الكبير جيمس فريزر (James Frazer): أنّ أمجاد العلم تمتدّ جذورها إلى سخافات السّحر؛ لأنّه كلّما أخفق السّاحر في سحره، استفاد من إخفاقه هذا استكشافًا لقانون من قوانين الطّبيعة، يستعين بفعله على مساعدة القوى الطّبيعيّة في إحداث ما يريد أن يحدثه من ظواهر، ثمّ أخذت الوسائل الطبيعيّة تسود وترجح كفّتها - شيئًا فشيئًا - ولو أنّ السّاحر كان يخفي دائمًا هذه الوسائل الطّبيعيّة ليحتفظ بمكانته عند النّاس، ما استطاع إلى إخفائها من سبيل، بأن يعزو الظّاهرة الّتي أحدثها للسّحر الّذي استمدّه من القوى الخارقة للطّبيعة، وهذا شبيه جدًّا بأهل هذا العصر، حين يعزون الشّفاء الطّبيعيّ لوَصفَات وعقاقير سحريّة، وعلى هذا النّحو؛ كان السّحر هو الّذي أنشأ لنا الطّبيب والصّيدليّ، وعالم المعادن، وعالم الفلك"[34].

فعلم الأرصاد الجويّة - اليوم - هو ثمرة خرافة الأبراج وعلم النّجوم والأنواء، "كان الفلك: هو العلم الّذي امتاز به البابليّون واشتهروا به في العالم القديم كلّه، وهنا - أيضًا - كان السّحر منشأ العلم، فلم يدرس البابليّون النّجوم ليرسموا الخرائط الّتي تعين على مسير القوافل والسّفن؛ بل درسوها أكثر ما درسوها لتعينهم على التّنبؤ بمستقبل النّاس ومصائرهم، وبذلك كانوا منجّمين أكثر منهم فلكيّين"[35]، أمّا أبو الفيزياء الكلاسيكيّة - نيوتن - عُرف عنه ولعه بالسّحر لاستحكام العقل الاستقرائيّ عنده، أملًا في تقنين كلّ ما يمكن تقنينه، وكتب المعالج النّفسيّ مايكل وايت في ذلك كتابًا بعنوان "إسحاق نيوتن: آخر السّحرة" (Isaac

32 إحياء علوم الدّين، ص 29.

33 عزمي بشارة، الدّين والعلمانيّة في سياق تاريخيّ، 1/ 53.

34 قصّة الحضارة، 1/ 115- 116.

35 قصّة الحضارة، 2/ 250.

Newton: The Last Sorcerer)، كذلك، تحويل الموادّ في الفيزياء الذّريّة - الآن - هو امتداد لمساعي الخيميائيّين في تحويل المعادن الرّخيصة إلى ذهب، وهذا ما نجح فيه الياباني هانتارو ناغاوكا (Hantaro Nagaoka)؛ بتحويل 1 ميليجرام من أحد نظائر الزّئبق إلى ذهب بنجاح عام 1924م، ودراسات عوامل إطالة متوسّط العمر اليوم؛ هي نفسها آمال القدماء في العثور على إكسير الشباب، وقبل مدّة، أصبح المجال المغناطيسيّ هو البديل الحديث لأسطورة الأثير اليونانيّة، الّتي عاد العلماء لافتراضها في أواخر القرن السّابع عشر، ثمّ تراجعوا عن ذلك؛ بل حتّى الكتابة نفسها يرى بعض الباحثين أنّها "إنّما ظهرت بتأثير عبادة النّجوم، وذلك في أرض "كلديا"، وكان الكهنة قد وضعوا رموزًا للنّجوم، ومن تلك الرموز أخذت الأبجديّة الأولى"[36]، وغيرها الكثير من الأمثلة.

فلماذا هذا الإجحاف لدور السّحر والعلوم الرّوحيّة في مسيرة المعرفة الإنسانيّة؟ إلّا أن تكون رواسب دينيّة مازالت تلقي بظلالها على أكثر من ثمانين ألف عام، مارست فيها البشريّة السّحر على أنّه نشاط علميّ محترَم، في مقابل منهج علميّ عمره لا يتجاوز أربعة قرون، كان قبلها مدينًا للسّحر وللاستقراء النّاقص.

نظرة إلى العلوم السّحريّة من مقدّمة ابن خلدون:

بعد أن قدّمنا لمحة تاريخيّة عن بدايات ظهور السّحر كعلم، مختلط ببدايات العلوم والفلسفة، سنناقش - هنا - علوم السّحر والطّلسمات من مقدّمة ابن خلدون؛ لنعرف مكانة هذه العلوم بأعين مؤرّخ القرن الرّابع عشر، وكيف كانت عداوة السّحر عداوة للعلوم.

يطالعنا ابن خلدون في مقدّمته بتعريف علوم السّحر والطّلسمات، بأنّها: "علوم بكيفيّة استعدادات تقتدر النّفوس البشريّة بها على التّأثيرات في عالم العناصر، بغير معيّن - أو بمعيّن - من الأمور السّماويّة"[37]؛ فهي نوع من تأثير الوعي في المادّة، واقع على الحقيقة، وليس من قبيل التّخييل، ثمّ يبيّن عالميّة هذه العلوم: "واعلم أنّ أكثر من عني بها قبل الإسلام، هما: فارس والرّوم، وكان للكلدانيّين ومن قبلهم من السّريانيّين ومن عاصرهم من القبط عناية بالسّحر والنّجامة، وما يتبعها من الطّلاسم"[38]، لكن مع ظهور الأديان التّوحيديّ - خاصّة المسيحيّة - حوربت العلوم باعتبارها سحرًا: "ولمّا انقرض أمر اليونان، وصار الأمر للقياصرة وأخذوا بدين النّصرانيّة، هجروا تلك العلوم كما تقتضيه الملل والشّرائع[39]، ثمّ تتابعت الملل بحظر ذلك وتحريمه، فدرست (يعني انتهت) علومه وبطلت، كأن لم تكن إلّا بقايا يتناقلها منتحلو هذه الصّنائع"[40].

36 المفصّل في تاريخ العرب قبل الإسلام، 15/ 147.

37 المقدّمة، ص 655.

38 المقدّمة، ص 631.

39 ولعلّ محاربة العلم عند الرّومان؛ لأنّه كان في رومة عدد قليل من الرّجال ذوي النّزعة العلميّة، فلم يكن العلم الطّبيعيّ قد انفصل بعد عن السّحر، ويل ديورنت، قصّة الحضارة، 10/ 187.

40 المقدّمة، ص ص631- 632.

وبعد قرون طويلة تأخّر فيها العلم عن أرض العرب، دخلت "علوم أمّة واحدة - وهم اليونان خاصةً - لكَلفِ المأمون في القرن الثّالث الهجري بإخراجها من لغتهم، واقتداره على ذلك بكثرة المترجمين وبذل الأموال فيه[41]، لم يترجم لنا من كتبهم فيها إلّا القليل، مثل (الفلاحة)"[42]، وذكر الفلاحة في سياق السّحر - هنا - يبيّن مدى تداخل هذه العلوم الزّائفة بعلوم حقيقيّة.

الكيمياء:

يواصل ابن خلدون السّرد: «فأخذ النّاس منها هذا العلم وتفنّنوا فيه، ثمّ ظهر في المشرق جابر بن حيّان - كبير السّحرة في هذه الملّة - وأكثر الكلام فيها وفي صناعة الكيمياء»[43]، نرى جابر بن حيّان - هنا - بصفة السّاحر لا عالم الطّبيعة؛ فابن خلدون يرى الكيمياء من توابع السّحر، «لأنّ إحالة الأجسام النّوعيّة من صورة إلى أخرى، إنّما يكون بالقوّة النّفسيّة لا بالصّناعة العمليّة؛ فهو من قبيل السّحر»[44]، تتجلّى - هنا - أشعريّة ابن خلدون وتأثّره بالغزاليّ الّذي قال في معرض ردّه على الفلاسفة: «إنّ مصير الشّيء شيءٌ آخر غير معقول»[45].

فيعارض الكيميائيّين بنفس ما عارض به الغزاليّ الفلاسفة، باستحالة تحويل العناصر في الطّبيعة، يقول ابن خلدون: «إنّ الكيمياء - إن صحّ وجودها - كما يزعم الحكماء المتكلّمون فيها، مثل: جابر بن حيّان، ومسلمة بن أحمد المجريطيّ، وأمثالهم، فليست من باب الصّنائع الطّبيعيّة، ولا تحدث بأمر صناعيّ، وليس كلامهم فيها من منحى الطّبيعيّات؛ إنّما هو من منحى كلامهم في الأمور السّحريّة وسائر الخوارق»[46]، لكن مع فرق أن ابن خلدون يجيز تحويل العناصر بالسّحر؛ فالكيمياء عنده ليست علم طبيعيّ بقوانين المادّة؛ بل سحر من نفوس السّحرة، «ونفوس السّحرة لها خاصّيّة التّأثير في الأكوان واستجلاب روحانيّة الكواكب، للتّصرّف فيها والتّأثير بقوّة نفسانيّة أو شيطانيّة»[47]، وهذا يؤكّد ما ذهب إليه مؤسّس الأنثروبولوجيا البنيويّة كلود ليفي شتراوس (Claude Lévi - Strauss) بأنّ السّحر: هو «**أنسنة**» قوانين الطّبيعة؛ أي تصوّرها أفعالًا لكائن عاقل[48].

41 مقدّمة ابن خلدون، ص 50.

42 المقدّمة، ص 655.

43 المقدّمة، ص 655.

44 المقدّمة، ص 656.

45 تهافت الفلاسفة، أبو حامد الغزالي، ، تحقيق: سليمان دنيا، دار المعارف، القاهرة، الطّبعة السّادسة، ص250.

46 المقدّمة، ص 673.

47 المقدّمة، ص 656.

48 Claude Levi-Strauss,The Savage Mind, Nature of Human Society Series (Chicago: University of Chicago Press, [1966]), p.221

فعلوم السّحر - عند ابن خلدون - ليست حرامًا لكونها باطلة؛ بل «إنّ وجود السّحر لا مرية فيه بين العقلاء»[49]، "فهي حرام لأنّ فيها نوع ضرر باعتقاد التّأثير، فتفسد العقيدة الإيمانيّة بردّ الأمور إلى غير الله"[50]، وهو نفس تبرير الغزاليّ لتحريم علم النّجوم.

السّحر وإرهاصات التّجريب:

يقول عزمي بشارة: «كان السّحر تقنيّة للتّأثير في العالم بواسطة أدوات مادّيّة مساعدة، وفي بعض الحالات؛ تمثّل هذه الأدوات - بشكل جنينيّ - إرهاصات العلم التّجريبيّ من ناحية اختبار التّقانات، لكن مع مزج بالأسطورة، وكانت الكيمياء نموذجًا كاملًا لهذه العلاقة بين السّحر والتّحوّل؛ فالسّحر يمكّن السّاحر من السّيطرة على الطّبيعة، مثل سيطرة العلم على قوى الطّبيعة غير الواعية»[51]، هذا - بالضّبط - ما نجده في وصف ابن خلدون للسّحر؛ حيث يقول: «فصاحب الطّلسمات يرجِع إلى أصول طبيعيّة علميّة وقوانين مرتّبة»[52] لها شروطها، ما إن يحقّقها السّاحر «بأسرار فلكيّة، ونسب عدديّة، وبخورات جالبات لروحانيّة ذلك الطّلسم»[53]، ونلاحظ - هنا - الأدوات المادّيّة المساعدة؛ من أسرار فلكيّة وبخورات، حتى تمارس الكواكب تأثيرها في الطّبيعة، ويؤكّد ويل ديورنت «كان الباحثون في الكيمياء الكاذبة - بوجه عامّ - مخلصين في بحثهم، يستخدمون الطّرائق التّجريبيّة بأمانة، أكثر ممّا يستخدمها غيرهم من العلماء الأقدمين»[54].

يقول فريزر: السّحر هو نظام قوانين الطّبيعة، لكنّه نظام زائف[55]؛ فالسّحر «كان يعتمد على الفرضيّة القائلة (إنّ هناك أحداثًا في الطّبيعة تستلزم حصول أحداث أخرى دون تدخّل القوّة الشّخصيّة الرّوحيّة - إذن - يتطابق مفهوم ذلك السّحر تمامًا مع مفهوم العلم الحديث، الّذي يؤمن ضمنًا بنظام الطّبيعة ووحدتها»[56]، «يكون هذا الافتراض ضمنيّ عند السّحر، وصريح عند العلم، وصحيح أنّ السّحر - غالبًا - ما يتعامل مع الأرواح الّتي يعدّها قوى شخصيّة من ذات النّوع الّتي يتعامل معها الدّين»[57]، وكما عرّجنا على تفسير لفي ستراوس للسّحر بأنّه: (أنسنة الطّبيعة وتصوّرها كائنًا عاقلًا)؛ فإنّ فريزر يقدّر أنّ الطّبيعة - وإن كانت إنسانة - فإنّها منزوعة الإرادة، «فيكرهها ويتحكّم بها، بدلًا من استرضائها واستمالتها كما يفعل الدّين،

49 المقدّمة، ص 657.

50 المقدّمة، ص 663.

51 عزمي بشارة، الدّين والعلمانيّة في سياق تاريخيّ، 1/ 106- 107- 103.

52 المقدّمة، ص 667.

53 المقدّمة، ص 666.

54 قصّة الحضارة، 12/ 246.

55 جيمس جورج فريزر، الغصن الذّهبيّ، ص 29.

56 المرجع السّابق، ص 77.

57 المرجع السّابق، ص 80.

وهذا يفسّر الكراهيّة الشّديدة الّتي يكنّها رجال الدّين للسّحرة عبر التّاريخ»[58]، وهو نفس دافع العداء الّذي واجهه العلماء لكونهم - أيضًا - يُخضِعون قوّة الطّبيعة، وهي - في تصوّر رجال الدّين - قوى إلهيّة لا يجوز ادّعاء إخضاعها أو التنبّؤ بها، وهذا يفسّر إنكار الفقهاء إمكانيّة التّنبّؤ بالخسوف والكسوف، ومواسم الحصاد والرّياح[59]، كونها ممّا استأثر الله بعلمه من الغيب، وما عاصرناه مؤخّرًا من تحريم إنكار التّنبّؤ بجنس الجنين أو تحديده، وتحريم الاستمطار الصّناعيّ واللّقاحات كونها اختصاصات إلهيّة[60].

ويواصل فريزر: «لم يشكّ الساحر في أنّ الأسباب نفسها تؤدّي إلى النتائج نفسها، وأنّ أداء الطّقس بشكله المناسب المصحوب بالرّقية المناسبة، سيعطي - حتمًا - النّتيجة المطلوبة - إذن - السّحر لا يتزلّف لقوّة عليا، ولا يلتمس رحمة كائن متقلّب أو قدر أو ألوهيّة مرعبة؛ ففي كليهما نرى انتظام تتابع الأحداث كونها محكومة بقوانين ثابتة يمكن حسابها أو التّنبّؤ بها بكلّ دقّة، ويختفي عنصر التّقلّب أو المصادفة في مسيرة الطّبيعة، ويبدو أنّ كليهما يفتحان أفق الاحتمالات واسعًا أمام من يعرف أسباب الأشياء ويستطيع أن يتلمّس النّوابض السّرّيّة، الّتي تحرّك الميكانيكيّة الواسعة المعقّدة للعالم، لعب السّحر والعلم - لهذا السّبب - دورًا جذّابًا في العقل البشريّ، وشكّلا دافعًا للبحث عن المعرفة[61].

وممّا ذكره ابن خلدون عن بعض قدرات السّحرة: أنّه سمع في الهند عمّن «يشير إلى الرّمانة وتُفتح فلا يوجد من حبّاتها شيء، وكذلك سمعنا أنّ في أرض السّودان وأرض التّرك من يسحر السّحاب فيمطر الأرض المخصوصة»[62]، وهذان المثالان - بالذّات - يمكننا تخمين حيلهما، فلا يصعب على مزارع يحتكر أسرار الصّنعة أن يخمّن خلوّ رمّانة فاسدة من الحبات، أو أن يكون قد طعّمها بنوع خالٍ من الحبّاب؛ فيظنّه النّاس سحر ثمرة الرّمان، وهذا وارد لتطوّر الزّراعة في الهند، فقد روى ابن الوردي: «إنّه إذا ركّب التّفاح في الرّمان يحمرّ ويحلو»[63]، وقد ذكر ديورنت: «أنّ علماء الحياة المسلمين عرفوا طريقة إنتاج فواكه جديدة بطريق التّطعيم»[64]، أمّا الفلكيّ - برصده وعلمه بمواسم الأمطار وتمييز السحاب الماطر - فلا يستبعد أن يشير إلى السّحاب متوقّعًا نزول المطر فينزل، ويعدّونه سحرًا؛ «فالعرب تعرف أوقات المطر والرّياح

58 المرجع السّابق.

59 المنقذ من الضّلال، أبو حامد الغزالي، دار الكتب الحديث، مصر، ص 140.

ومعالم السّنن، وهو شرح سنن أبي داود، أبو سليمان الخطابي، المطبعة العلميّة، مصر، الطّبعة الأولى، 1932م، 4/ 229.

60 الغذامي، الفقيه الفضائيّ، ص 13.

وفتاوى اللجنة الدّائمة، 1/ 241- 172/2.

وصحيفة الرّياض، العدد 14631، «الاستمطار الصناعيّ لا يجوز».

وموقع عربي21، «نيجيريا جي بي أس لمراقبة التلقيح ضد شلل الأطفال».

61 المرجع السّابق، ص ص 77- 78.

62 المقدّمة، ص 658.

63 خريدة العجائب وفريدة الغرائب، سراج الدّين ابن الوردي، مكتبة الثّقافة الإسلاميّة، القاهرة، الطّبعة الأولى، 2008م، ص 319.

64 قصّة الحضارة، 13/ 188.

والحرّ والبرد بمطالع النّجم، ولهم في ذلك فضيلة بيّنة، وإذا رؤوا السّحاب عرفوا: هل هي ذات مطر أم لا؟ وهل مطرها كثير أو غير كثير، وهكذا..»[65]، لكنّ ابن خلدون لا يقبل التّشكيك في خوارق السّحرة، ويختار - عوضًا عن ذلك - تأكيد صحّتها، مع التّحذير «أنّها - وإن كانت صحيحة في نفسها - فلا يمكن لأحد من أهل الملّة تحصيل علمها»[66].

أشعريّة ابن خلدون وتأثّره بالغزاليّ:

الحقيقة: أنّ ابن خلدون حين أنكر تأثير الكواكب، بقوله: «إنّ تأثير الكواكب فيما تحتها باطل؛ إذ قد تبيّن في باب التّوحيد أنّ لا فاعل إلّا الله»[67]؛ فهو لا ينفيها وحدها بالتّحديد، لكنّه يتحدّث بلغة أشعريّة تنفي وجود الأسباب في الطّبيعة كلّها، وتحيلها إلى الله، بتأثيرٍ غزاليّ واضح مرّة أخرى[68] يقول الغزالي: «فاعتقاد كون الكواكب أسبابًا لآثار تحصل بخلق الله تعالى في الأرض وفي النبات وفي الحيوان، ليس قادحًا في الدّين؛ بل هو حقّ، لكنّ دعوى العلم بتلك الآثار على التّفصيل مع الجهل قادح في الدّين»[69].

يمكننا ملاحظة توافق آراء الغزالي في حياته ممتدّة بنفس الطّريقة في «مقدّمة ابن خلدون»؛ فابن خلدون - رغم استعراضه العلوم - و«ما تسمو إليه أفكار الإنسان فيها»[70]، عاد في نهاية «المقدّمة» ليقول: «إلّا أنّه ينبغي لنا الإعراض عن النّظر فيها؛ إذ هو من ترك المسلم لما لا يعنيه، فمسائل الطّبيعيّات لا تهمّنا في ديننا، ولا معاشنا فوجب علينا تركها»[71]، بنفس طريقة الغزالي الّذي قال في مرحلته العقليّة أيام تدريسه في النّظاميّة، حين أنكر على من يردّون العلم بالدّين: «فإنّ هذه الأمور تقوم عليها براهين هندسيّة حسابيَّة لا يبقى معها ريبة»[72]، عاد في مرحلة التّصوّف في كتاب «إحياء علوم الدّين» للقول: «إنّ علومهم في الطّبيعيات لا حاجة إليها»[73].

ويمتدّ تأثير الغزالي في ابن خلدون إلى تحديد علاقة العقل بالشّرع، فيقول ابن خلدون: «إنّ العقل معزول عن الشّرع وأنظاره؛ فإذا هدانا الشّارع إلى مدرك، فينبغي أن نقدّمه على مداركنا ونثق به دونها،

65 القول في علم النّجوم للخطيب، ص 167.

66 المقدّمة، ص 717.

67 المقدّمة، ص 716.

68 تهافت الفلاسفة، مسألة 17، الاقتران بين ما يعتقد في العادة سببًا وبين ما يعتقد مسبّبًا.

69 إحياء علوم الدّين، أبو حامد الغزالي، دار المعرفة، بيروت، ص 117.

70 المقدّمة، ص 632.

71 المقدّمة، ص 710.

72 تهافت الفلاسفة، المقدّمة الثانية، ص 80.

73 الغزالي، إحياء علوم الدّين، 1/ 14.

ولا ننظر في تصحيحه بمدارك العقل ولو عارضه؛ بل نعتمد ما أمرنا به اعتقادًا وعلمًا، ونسكت عمّا لم نفهم من ذلك، ونفوّضه إلى الشّارع ونعزل العقل عنه»[74].

وهذا نقل شبه حرفيّ من كلام الغزالي في المستصفى: «عند هذا ينقطع كلام المتكلّم، وينتهي تصرّف العقل؛ بل العقل يدلّ على صدق النّبيّ، ثمّ يعزل نفسه، ويعترف بأنّه يتلقّى من النّبيّ بقبول ما يقوله في الله واليوم الآخر، ممّا يستقلّ العقل بإدراكه، ولا يقضي - أيضًا - باستحالته؛ فقد يرد الشّرع بما يقصر العقل عن الاستقلال بإدراكه»[75]، وابن خلدون مطّلع جيّد على كتابات الغزالي ومتأثّر به بشدّة، لدرجة قوله: «مَن أراد إدخال الرّدّ على الفلاسفة في عقائده فعليه بكتب الغزاليّ»[76] وهذا مبحث آخر يخرج عن موضوعنا.

ختامًا:

إنّه من نافلة القول: إنّنا لا ندعو - هنا - إلى إعادة بعث السّحر في عصر العلم والتّجريب؛ فالحدّ بين المجالين أصبح واضحًا تمامًا، بين تاريخ العلوم الفعليّ، بنماذجه النّظريّة القابلة للدّحض والإثبات، وبين تاريخ العلوم السّابق، بمحاولاته وأخطائه، «لكن عندما نتعدّى هذا الحدّ نحو الماضي يصبح الأمر مختلفًا تمامًا، لذلك؛ ترانا نتعاطف على الطّرائق البدائيّة بنظرة مقت وازدراء، بدلًا من القيام بواجبنا، وهو ذكر الإحسان الّذي أمتنّ علينا به البدائيّون، وكلّ ما حصل وما قيل عنهم مازال تشابهنا معهم أكثر من اختلافنا عنهم، ومازلنا نشترك معهم في أشياء نحتفظ بها عنهم، ونعدّها صحيحة ومفيدة، لقد ورثنا عبر عصور بعيدة ثروة نسينا جانيها واعتبرنا أنفسنا مالكين أصليّين لها، منذ بدء الحياة على وجه الأرض، وعندما نتأمّل ونحقّق في الأمر؛ نجد أنّ أخطاءهم لم تكن تهوّرًا مقصودًا أو نوبات جنونيّة؛ بل كانت - ببساطة - فرضيّات مبرّرة قياسًا للزّمن الّذي اقترحت فيه، ثمّ تبيّن - بعد ذلك - وعبر التّجربة أنّها فرضيّات غير صحيحة، فعلينا أن نمنحهم امتياز الغفران الّذي قد نحتاجه يومًا ما»[77]، ونعيد النّظر في مفاهيم قرّت في أذهاننا، بتأثير إيديولوجيّ، أو بكثرة التّرديد غير الفاحص، لعلّنا نفكّ الاشتباك الّذي سيفيدنا - بلا شكّ - في دراسة الغايات الإنسانيّة والدّوافع والرّؤى الّتي قادت إلى العلم التّجريبيّ وفهمها.

74 المقدّمة، ص 591- ص 653.

75 أبو حامد الغزالي، المستصفى، دار الكتب العلميّة، الطّبعة الأولى، 1993م، ص 6.

76 المقدّمة، ص591، ص653.

77 جيمس جورج فريزر، الغصن الذّهبي، ص ص 344- 345.

المصادر والمراجع

- عزمي بشارة، الدّين والعلمانيّة في سياق تاريخيّ، الجزء الأوّل، المركز العربيّ للأبحاث والدّراسات، الدّوحة، الطّبعة الأولى، 2013م.
- مقدّمة ابن خلدون، ديوان المبتدأ والخبر في تاريخ العرب والبربر ومن عاصرهم من ذوي الشّأن الأكبر، عبد الرّحمن بن محمّد، ابن خلدون، دار الفكر، بيروت، الطّبعة الثّانية، 1988م.
- المفصّل في تاريخ العرب قبل الإسلام، جواد علي، الطّبعة الثّانية، 1993م.
- ويل ديورنت، قصّة الحضارة، ترجمة: زكي نجيب محمُود وآخرين، دار الجيل، بيروت، 1988م.
- جيمس جورج فريزر، الغصن الذهبيّ، دراسة في السّحر والدّين، دار الفرقد، دمشق، الطّبعة الأولى، 2014م.
- أخوان الصّفا وخلّان الوفا، مطبعة نخبة الأخبار، مصر، 1306هـ.
- في طريق الميثولوجيا عند العرب، محمود سليم الحوت، دار النّهار، الجزائر، الطّبعة الأولى، 2000م.
- إحياء علوم الدّين، أبو حامد الغزالي، دار المعرفة، بيروت.
- تهافت الفلاسفة، أبو حامد الغزالي، تحقيق: سليمان دنيا، دار المعارف، القاهرة، الطّبعة السّادسة.
- القول في علم النّجوم، الخطيب البغدادي، دار أطلس للنّشر والتّوزيع، الرّياض، الطّبعة الأولى، 1999 م.

MominounWithoutBorders

Mominoun

@ Mominoun_sm

مؤمنون بلا حدود
Mominoun Without Borders
للدراسات والأبحاث www.mominoun.com

الرباط – أكدال. المملكة المغربية

ص ب : 10569

الهاتف : 54 99 77 537 212+

الفاكس : 27 88 77 537 212+

info@mominoun.com

www.mominoun.com

جميع الحقوق محفوظة © 2017

All rights reserved © 2017